إسهامات المستشرقين في التأليف المعجمي

أ.أحمد كاس
جامعة الأغواط

من الأمور التي مازالت خارج حيز التوثيق التاريخي الدقيق بداية الحركة الاستشراقية؛ إذ لا يعرف من هو أوّل من عني بالدراسات الاستشراقية، ولا في أيّ وقت كان ذلك. إلّا أنّ المؤكد أن بعض الرهبان والقساوسة الأوروبيين من أمثال جربير المعروف بسلفستر الثاني (930/1003م)، وبطرس المحترم(1092-1157م)، وجيرار دي كريمون (1114 /1184م) وغيرهم، ارتحلوا إلى بلاد الأندلس في الوقت الذي كانت فيه أهمّ حاضرة علمية إسلامية، فتعلّموا في مدارسها، وأتقنوا العربية، ووقفوا على القرآن الكريم وحاولوا ترجمته، كما حاولوا ترجمة نفائس المصنفات العربية، لأنّهم أدركوا أنّها السبيل الأقوم للخروج من دهاليز الظلام التي كانت تقبع فيها الممالك الأوروبية آنذاك. ولّما عاد هؤلاء الرهبان إلى أوطانهم لم يتوانوا في نشر ما حصّلوه من ثقافة العرب، وما ترجموه من مؤلفاتهم. وتبع هذه الخطوة تأسيس معاهد وجامعات في أوروبا تعنى بالدراسات العربية، وقد اعتمدت هذه المراكز العلمية على المؤلفات العربية التي ترجمت إلى اللغة اللاتينية كمصدر أساسي للتعليم والتكوين لعدة قرون[1].

وما فتئ الاستشراق- في هذه الفترة- ينمو ويتطور شيئا فشيئا إلى أن أصبح حركة منظّمة لها مرجعياتها المختلفة وتوجّهاتها الفكرية المتشعّبة، حتّى إذا جاء القرن الثامن عشر ووصلت الأطماع الغربية في الهيمنة على العالم العربي والإسلامي أوجّها، زادت حاجة الغربيين إلى تعلّم اللغة العربية، والأخذ بناصيتها بغية التواصل مع أهلها، والاطلاع على عاداتهم وتقاليدهم، والوقوف على معاني القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والسيرة، والتاريخ الإسلامي، وبات من الضروري على الدول والحكومات الغربية تمويل أرباب الاستشراق والإنفاق عليهم، حتّى يتمكّنوا من إنتاج دراسات عربية صارمة في جميع المجالات[2].

وبالرغم من الجوانب المظلمة، والأهداف الخفية التي كانت ترمي إليها الحركة الاستشراقية وفي مقدّمتها الهيمنة الفكرية، والثقافية، والسياسية، على العالم العربي والإسلامي، ونشر تعاليم الدين المسيحي في الأقطار العربية والإسلامية... إلاّ أنّ بعض المستشرقين كانت لهم أهداف علمية خالصة، لا يقصد من ورائها سوى البحث والتقصي. هذه الفئة استطاعت التوصل إلى إنتاج كمّ لا بأس به من الدراسات الجادة التي " تعمّقت في العالم الإسلامي تعمّقا يلفت النظر، واستحضرت لذلك البيانات الهائلة، والمعلومات المهمّة الكثيرة، وناقشتها مناقشة لا تخلو من فائدة جمّة[3]". لعلّ أهمّ ثمارها الترجمة وصناعة المعاجم والفهارس، وتحقيق المخطوطات، والعناية بها، ومناقشتها، فضلا عن البحوث الإحصائية، والدراسات الاجتماعية واللغوية، التي كثيرا ما وصلت بالبحث العلمي إلى درجة كبيرة من الدقة والموضوعية.

جهود المستشرقين في المجال المعجمي:

إنّ الباحث في ميدان الدراسات اللغوية العربية ليعجب كلّ العجب حين يقف أمام الجهود الجبّارة التي بذلها المستشرقون خدمة للمعاجم العربية، فقد صرفوا الوقت والجهد في تصنيف معاجم لغوية محكمة يشهد لها أبناء العربية – قبل غيرهم- بالعظمة والجودة، وربّما لا نخطئ حين نقول: إنّ بعض تلك المعاجم ضارعت أمّهات المعاجم العربية في ثرائها، وإحكام وضعها.

وعناية المستشرقين بالمعجم العربي ليست وليدة عصر النهضة، بل تعود بجذورها إلى القرن الثاني عشر الميلادي، حيث ظهر أول معجم مزدوج أطلق عليه اسم "المعجم العربي اللاتيني" وبالرغم من جهلنا بواضع هذا المعجم، ومكانه، إلا أن نظرة فاحصة في محتواه تدلّ على أنّ تأليفه كان في بلاد اسبانيا [4].

ويلاحظ أنّ هذا المعجم يعكس بصورة جلية وواضحة افتقار صاحبه لقدر كبير من المعرفة باللغة اللاتينية، و كذلك يصدق الحال على معرفته بالعربية، بالإضافة إلى خلطه الكبير بين معيارين هامّين من معايير المعجمية وهما: الترجمة، والشرح الموضوعي للكلمات. زيادة على هذا فقد أهمل المؤلّف آلاف الكلمات المدوّنة، فجاء المعجم مبتورا غير كامل[5].

وفي القرن الثالث عشر للميلاد ظهر في شرق إسبانيا معجم آخر لمفردات اللغة العربية، وقد تمّ نشره فيما بعد من قبل المستشرق شيبا ريللي سنة 1881م، وهذا المعجم لا يختلف كثيرا عن سابقه، فالمعلومات والملابسات التي رافقت وضعه هي الأخرى مجهولة. وقد شملت مصطلحات هذا المعجم مجالات شتّى، وهو غني بمفردات الكنيسة اللاهوتية، ويكثر فيه ذكر الشخصيات التوراتية، وتؤخذ فيه بعين الاعتبار أسماء الكواكب والظواهر السماوية و الأشهر المسيحية، وبالمقابل يندر فيه ذكر أسماء المدن و العلوم[6].

وواضح أنّ هذا المعجم جاء خدمة للاحتياجات العلمية للتبشير، وطابقه أنّ المفردات العربية لم توافق القواعد النحوية بل تمّ إيرادها كما كانت تنطق في الأوساط المثقفة، ولهذا يمكن أن نعتبر هذا المعجم بمثابة النافذة التي يمكن من خلالها التعرف على اللغة العربية العامية في أوساط المثقفين بإسبانيا، في القرن الثالث عشر للميلاد[7].

وتواصلت جهود المستشرقين في المعجم العربي فظهرت معاجم أخرى من بينها معجم اللغة العربية الإيطالي للمستشرق أنطونيوس جيجايوس (1632م)، والمعجم العربي اللاتيني الهولندي للمستشرق يعقوب جوليوس (1596-1667م)، والمعجم العربي اللاتيني للمستشرق جورج فلهلم فريتاج (1788-1861م)...

وفي نهاية القرن التاسع عشر أخرج المستشرق إدوارد لين(1801-1876م) واحدا من أجود المعاجم التي ألفها المستشرقون، سمّاه مد القاموس. وهو معجم عربي إنجليزي في ثمانية أجزاء، ألّف على نسق المعاجم الأوروبية، ونشرت الأجزاء الخمسة الأولى في حياة مؤلّفه بين سنتي 1863م و 1876م، وبعد وفاته نشر ابن أخته ستانلي لين بول الأجزاء المتبقّية وكان آخرها سنة 1893م[8].

ويفصح إدوارد لين عن مصدر المادّة اللغوية لمعجمه فيقول " إنّ تاج العروس هو الكتاب الذي استقيت منه محتويات معجمي هذا، وواجب عليّ أن أؤكّد أنّه الأساس الذي قرّرت أن أفيد منه الفائدة العظمى[9]". وقد كان لين كثيرا ما يرجع إلى لسان العرب لابن منظور لينقل عنه مباشرة بعد أن لاحظ أنّ جزءا كبيرا من المادّة اللغوية التي يحتويها تاج العروس مأخوذة بصورة عامة من لسان العرب[10].

وفي سنة1881م ظهر المستشرق رينهارت بيتر آن دوزي (1820-1883م) بمعجمه القيّم تكملة المعاجم العربية، [*]هذا المعجم الذي يتزّل مكانة رفيعة في تاريخ المعجمية العربية، لأنّ مؤلفه انطلق في جمع مادته اللغوية من منطلقات تختلف كثيرا عن منطلقات صناع المعاجم القدماء والمعاصرين له[11]. فحاول أن يتجنب منهج القدماء الذين تعلّقوا بمبدأ الصفوية "ولميقبلوا أن يدرسوا لغة أخرى غير الفصحى[12]" وخرج عن سابقيه من المستشرقين أمثال جوليوس، وفريتاج، و لين، الذين تأثروا بالمشارقة وحذو حذوهم في التأليف والتصنيف[13].

لقد جمع دوزي مادّته اللغوية من كمّ كبير من المصادر بلغ أربعمائة وثلاثين مصدرا أهمها : المعجم العربي اللاتيني الذي ألّف في القرن الثاني عشر للميلاد، بالإضافة إلى المعجم الاسباني العربي الذي ألّفه الأب بدرو دي ألكالا في بداية القرن

السادس عشر، ومعجم محيط المحيطللمعلّم بطرس البستاني. وممّا يميّز هذا المعجم محاولته تحاشي ذكر الكلمات التي عرّبها العرب وتكلّموا بها. ولنا هنا أن نشير إلى أنّ تمييز هذه الكلمات ليس بالأمر الهيّن، إذ أنّ مثل هذا الإجراء يستغرق بالباحث وقتا كبيرا، دون أن يصل به إلى درجة كبيرة من الدقة، و دوزي نفسه يقرّ بهذا الأمر حين يقول" فربّما أهملت كلمات كان لها أن لا تهمل، وأثبتت أخرى كان لا بدّ لها أن تُغفل[14]".

لقد اتبع دوزي في ترتيب مواد و مداخل معجمه الترتيب الألفبائي بحسب الجذور مجرّدة من الزوائد، وهو الترتيب الذي اعتمده بعض المعجميين العرب القدامى، واتبعه كلّ المحدثين من عرب ومستشرقين، وقد أوقعه هذا الترتيب في أخطاء كثيرة، كان بإمكانه أن يتجنّبها لو أنّه رتّب مداخله بحسب تتاليها غير معرّاة من زوائدها[15].

وقد اعتمد دوزي في معجمه هذا العديد من اللهجات واللغات العامية، كاللهجة الأندلسية والمغربية والبربرية، وضمّنه اصطلاحات الطبّ والزراعة والنبات، وألفاظا دخيلة، وحاول الابتعاد عن الاختيار الذي وقع فيه أكثر صناع المعاجم العربية، الذين ركزوا على المستوى الفصيح من اللغة العربية. غير أنّه لم يستطع ذلك لاتسام مصادره بسمات فيها درجة كبيرة من الخصوصية[16].

وبالرغم من الهفوات والأخطاء التي وقع فيها المستشرق دوزي من حشو، وتصحيف وتحريف، واضطراب في الترتيب والتبويب، وخلل على مستوى التعريف وأصول الكلمات، وإهمال لقواعد اللغة العربية، وتغاض عن بعض الأخطاء التي ارتكبها سابقوه. إلّا أنّ معجمه تكملة المعاجم العربية " يعدّ تكملة بحق للمعاجم العربية من حيث النظر إلى وظيفة المعجم، وتنوع المعاني، وحياة الكلمات، وتطور اللغة، إضافة إلى عنايته بالسياقات، وعناصر المعجم الأخرى"[17].

وللمستشرق دوزي تجربة أخرى في ميدان الصناعة المعجمية تتمثّل في كتابه " المعجم المفصّل في أسماء الملابس العربية" الذي قام بتأليفه بين سنتي 1841 و1843م . وهذا المعجم يتناول الملابس والأزياء في جميع الأقطار العربية، غير أن تركيزه ينصبّ أكثر على بلاد الأندلس والمغرب العربي ومصر. و لم يقتصر هذا المعجم على الاهتمام بالملابس وحسب، بل تعدّى ذلك ليشمل جوانب أخرى كالتاريخ والأدب والفلكلور.

أمّا المادة اللغوية لهذا المعجم فهي مأخوذة من كتب الرحالة خاصة ابن بطوطة، وهذه المادة كمادة معجمه السابق مرتبة وفق الترتيب الأبجدي. ومن المآخذ المسجلة على هذا المعجم الاستطراد الممل، والتفسير الخاطئ لبعض النصوص، وبناء أحكام على تفسيرات خاطئة، وابتداع صيغ صرفية ليست معروفة، وعدم ذكره لعدد كبير جدّا من مسمّيات الملابس العربية . ولكن يبقى هذا المعجم بمنهجيته، وطريقة بحثه، ونماذجه المدروسة محاولة جليلة يؤسف القول "إنّ عربيا واحدا لم يحاول مثلها"[18].

وينتهي بنا الحديث عن المعاجم الجادّة التي ألّفها المستشرقون في عصر النهضة إلى المستشرق أوغست فيشر، هذا الرجل الذي تميّز عن سابقيه بنهجه الموضوعي الصرف، ودقته الكبيرة في التحليل، وحدسه اللغوي القوي، وتمكّنه من الثروة اللفظية، والاستعمال اللغوي للعربية ولهجاتها القديمة والحديثة[19]. كل هذه الميزات العلمية الصرفة حاول فيشر الاهتداء بها لإتمام مشروعه الهادف إلى استحداث معجم تاريخي شامل للغة العربية، لكن مشروعه هذا لم يكتب له الاستمرار، إذ " لم يصدر منه سوى المقدمة وبعض مادة الهمزة، وقد نشر ذلك في القاهرة بعنوان (المعجم اللغوي التاريخي) بعد موت صاحبه بوقت طويل[20]".

إنّ النظرة التاريخية التطورية التي كان الأستاذ فيشر ينظر بها إلى مفردات اللغة، جعلته يؤمن بضرورة إدخال كلّ الكلمات العربية في معجمه التاريخي. فالكلمات- بحسب رأيه- تخضع في صيرورة اللغات إلى تطورات وتحوّلات لافتة في دلالاتها

واستعمالاتها، ومن الواجب عرض هذه التطورات، وتوضيحها، وذكر أطوارها[21]. وبالرغم من هذا الهدف الذي رسمه فيشر لمعجمه إلّا أنّ ثمّة ما يناقضه إذا ما نظرنا إلى الحدود التاريخية التي توقّف عندها في أخذه للمادّة اللغوية، وهي نهاية القرن الثالث للهجرة[22].

وكغيره من المحدثين رتب أ . فيشر مواد معجمه التي أخذها من الدواوين الشعرية، النصوص النثرية، والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، بالإضافة إلى اصطلاحات علوم اللغة بمختلف فروعها، وفق الترتيب الأبجدي"المألوف لحروف الهجاء العربية على اعتبار الحرف الأول والثاني والثالث أساسا[23]". وممّا يسجّل له في معجمه هذا من مزايا زيادة على كثرة شواهده وحسن ترتيبه للمادة اللغوية وفروعها؛ الإشارة إلى المصدر أو المصادر التي استقى منها الكلمة، وتبيان الكلمات بحسب وجودها التاريخي مع الإشارة إلى استعمالاتها كثرة أو ندرة، وتوضيح اختلاف دلالات الكلمات بحسب الأقطار والأمصار المستعملة فيها. ولعلّ الميزة الأبرز في هذا المعجم شرحه للمعاني الحقيقية لبعض الكلمات الواردة في بعض المصادر العربية التي أحجم عن تفسيرها القدماء في معاجمهم، إمّا لعدم معرفتهم باللغات السامية، أو لجهلهم بعادات بعض الأمم الأعجمية التي كانت لها حدود جغرافية مع بلاد العرب[24].

كذلك يحسب لهذا المعجم توسعه في معالجة الحروف والأدوات، وهذا أمرٌ لم يكن مألوفا في غالبية المعاجم التي سبقته، لأنّ شرح حروف المعاني والتفصيل فيها ليس من اختصاص المعاجم في الأصل، وإنّما يدخل ضمن اهتمامات القاعدة النحوية. لكنّ الأستاذ فيشر شذّ عن هذا التوجه و رأى أنّهمن الضروري شرح الحروف والأدوات شرحا موسّعا "في المعجم أيضا، كي يتسنى لمن يستعمل المعجم أن يجد فيه ما يساعده على فهم الكتب العربية"[25].

ولا يخلو هذا المعجم – على كثرة مزاياه- من الهفوات والسقطات، أبرزها الحشو، والتمادي في إيراد الكلمات الأعجمية، وعدم التمييز بين الحقيقة والمجاز في استعمالات الكلمة. ولكن بالرغم من هذه العيوب يبقى المعجم التاريخي للأستاذ فيشر من المعاجم العربية القيّمة في العصر الحديث.

ملاحظات عامة حول معاجم المستشرقين:

في نهاية حديثنا عن صناعة المعاجم لدى المستشرقين يمكن أن نورد بعض الملاحظات العامة التي وقفنا عليها أثناء البحث منها:

1. مسيرة تأليف المعاجم من طرف المستشرقين تكشف لنا أنّ تلك المعاجم سارت بوتيرة تصاعدية، فقد كانت بادئ الأمر قاصرة ضعيفة، ثمّ تطورت شيئا فشيئا حتّى بلغت درجة كبيرة من النضج أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.
2. بعض المستشرقين كانوا على إطلاع كبير بالتراث المعجمي العربي، فالذي يقرأ مقدّمة مدّ القاموس لإدوارد لين مثلا، أو مقدّمة دوزي في تكملة المعاجم العربية، يدرك أنّ هذين الرجلين لم يؤلفا معجميهما حتى نالا نصيبا وافرا من المعرفة بتراثنا اللغوي العربي.
3. جاءت معاجم المستشرقين مختلفة متباينة، فكلّ معجم له خصوصيته، وطريقته، وهذا راجع إلى اختلاف الألسنة، وتعدد الثقافات التي خرجت منها تلك المعاجم. على عكس المعاجم العربية القديمة التي ألفت على نمط واحد، لأنّ واضعيها أبناء لغة واحدة، وأبناء فكر واحد.

4. من المستشرقين من جاء بإضافة جديدة للمعاجم العربية المتخصصة، مثل دوزي الذي اختار موضوع الملابس والأزياء العربية، وحاول التقيّد به في معجمه المفصّل بأسماء الملابس عند العرب. وجدير بالذكر أنّ هذا الموضوع لم تتطرق إليه المعاجم العربية المتخصصة قديما.
5. أغلب معاجم المستشرقين رتّبت موادّها ترتيبا ألفبائيا، مع تجريد المزيدة منها، وقد أوقعها هذا في اضطراب واضح في الترتيب، ولو أنّها اعتمدت ترتيب الكلمات من غير تجريدها من زوائدها لجنّبت نفسها الكثير من الأخطاء.
6. بعض المعاجم وسّعت نطاق النقل باعتمادها على الكتب الأدبية، وخرج أغلبها عن الحدود التاريخية التي قرّرها النحاة لأخذ المادة اللغوية.
7. من المستشرقين من وظفوا مبادئ الاتجاه التاريخي في معاجمهم، وسعوا للبحث في أصول الكلمات، وتطور استعمالاتها، مثل إدوار لين و دوزي و أوغست فيشر.
8. العديد من المستشرقين استعانوا بالمعاجم العربية القديمة وبنوا عليها، و بعضهم استعان بمعاجم ألّفها المستشرقون قبله، واعتمد عليها اعتمادا كبيرا، وبالتالي وقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها سابقوه.

الهوامش:

1. الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، مصطفى السباعي ، دار الوراق للنشر والتوزيع- القاهرة- دتدط ، ص 18/17.
2. بحوث في الاستشراق واللغة، إسماعيل أحمد عمايرة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ط1/ 1996 ، ص385.
3. المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية– بحث في الجذور التاريخية لظاهرة الاستشراق- إسماعيل أحمد عمايرة، دار حنين للنشر والتوزيع وخدمات الطباعة عمّان، ط1996/2، ص 66.
4. ينظر: تاريخ حركة الاستشراق – الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين- يوهان فوك، تر: عمر لطفي العالم، دار الكتب الوطنية بنغازي،ط2 /2001 ،ص 21.
5. ينظر نفسه ص 23 .
6. ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، ص 34.
7. ينظر: نفسه ص 35.
8. موسوعة المستشرقين، بدوي عبد الرحمان، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3/ 1993 ، ، ص524.
9. مقدّمة القاموس، إدوارد وليم لين، تر: عبد الوهّاب الأمير، مجلّة المورد، وزارة الإعلام العراقية، المجلد5، العدد2 /1972، ص 56.
10. ينظر: نفسه ص56.

(*) أطلق دوزي على معجمه الاسم الفرنسي" supplement de dictionaries Arabes " وقد ترجم إلى العربية ترجمات مختلفة منها: الملحق بالمعاجم العربية، وملحق المعاجم العربية، وذيل المعاجم العربية، وملحق وتكملة القواميس العربية، وتكملة المعاجم العربية، والمستدرك على المعاجم العربية، والملحق المساعد أو المعاون للمعاجم العربية. وقد اختار مترجمه عنوان تكملة المعاجم العربية لأنّ هذا العنوان نال من الشهرة ما لم تنله الترجمات الأخرى. ينظر: تكملة المعاجم العربية،

رينهارتدوزي، ترجمة وتعليق، محمد سليم النعيمي، سلسلة المعاجم والفهارس 32، مطبوعات دار الرشيد –العراق- دط / 1980 ص11.

11. ينظر: دراسات في المعجم العربي، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط1/1987، ص 202.
12. تكملة المعاجم العربية ص 13.
13. ينظر :نفسه ص 14.
14. المصدر السابق ص 27.
15. ينظر: دراسات في المعجم العربي ص 208.
16. ينظر: نحن والمستشرقون مع دراسة تحليلية لأثر المستشرق دوزي في المعجمة العربية، علي توفيق الحمد،مجلة جامعة النجاح للأبحاث- اليرموك- المجلد 2001/15 ص 19/18.
17. نفسه ص 25
18. المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، رينهارتدوزي، ترجمة الدكتور أكرم فاضل، ضمن مجلة اللسان العربي- الرباط- مقدمة المترجم المجلد 8 العدد 3 ص 25.
19. ينظر: تاريخ حركة الاستشراق ص 325.
20. المستشرقون والمناهج اللغوية، إسماعيل أحمد عمايرة،دار حنين – عمّان- ط2/1992 ، ص 31.
21. ينظر: المعجم اللغوي التاريخي، أوغست فيشر، تصدير الدكتور إبراهيم مدكور، المطبعة الأميرية- القاهرة- ط1/1967، ص 7 .
22. ينظر : نفسه ص 20 .
23. المعجم اللغوي التاريخي ص 20.
24. المعجم التاريخي للغة العربية – وثائق ونماذج- محمد حسن عبد العزيز، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة القاهرة، ط1/2008 ص 29.
25. المعجم اللغوي التاريخي، ص 28.